لم يبغض اللاجئون ملاجئهم

بقلم الأستاذ عريان سعد

نرثى للمشردين فى الطرقات ونأخذنا بهم رأفة ورحمة فان وجدنا إلى الحسنة سبيلا، قدمناها إليهم صدقات نشعر بعد تقديمها بشيء من راحة الضمير ، وإن لم نجد إلى الحسنة سبيلا تحملنا الحسرة عليهم ريثما تذوب الحسرة، وتذهب عنا حتى تعد، وحين يتجدد المنظر الذى يبعثها فى القلب من جديد .

وكم يتحدث الناس حين يرون هؤلاء المشردين نصف عراة يطلبون من الناس فى إلحاف ما يدفع عنهم ألم الجوع ، الجوع حقيقى أو غير حقيقى .

كم يتحدث الناس عن الملاجىء وضرورة إيواء هؤلاء البؤساء إليها ومنهم من يكل اللوم للأغنياء والحكومة على السواء لأن هؤلاء البؤساء لا تنشأ لهم الملاجىء التى تكفى لإيوائهم .

ولكن هؤلاء المشردين أو بعضهم بعبارة أصح وضعوا فى ملجأ تعطى لهم فيه الكسوة ويقدم لهم فيه الطعام ولهم فيه فراش يأوون إليه لا أقول فراش وثير ولكنه فراش على كل حال أوثر من الفراء وأدفأ من السماء اللذين كانا لهم فراشا وغطاء قبل أن يحتويهم الملجأ .

وضعوا فى مأمن من العرى والجوع اللذين استدروا بهما عطف الناس ولكنهم أحرقوا الفرش وثاروا على الملجأ وحفظته وقيل لهم فى تلك الثورة فقالوا نريد الخروج من الملجأ . أتريدون ترك الطعام والعودة إلى الجوع ؟ أتريدون ترك الثياب والعودة إلى العرى والحفاء؟ أتريدون ترك الكفاية لتعودوا إلى ذل السؤال؟ نعم يريدون ويصرون ويثورون ويتعرضون فى هذه الثورة لما يتعرض له الثوار من وسائل القمع ! .

أليس عجبا أن يثور الناس على الشبع فى سبيل الجوع وأن يثوروا على الكفاية فى سبيل السؤال وأن يثوروا على الثياب فى سبيل العرى ! !

لا ريب أن فى أفق هؤلاء المحرومين شيئا أشد إشراقا من الكسوة والطعام والمأوى .

نعم أن فى أقفاصهم شمسا يحجبها الملجأ والكسوة والطعام والفراش ، تلك الضروريات اللازمة للجسم فيتنازلون عن هذه الضروريات لتعود تلك الشمس إلى الأشرق عليهم .

الحرية ! الحرية التى ضحى الانسان حياته وماله فى سبيلها من أول عهده بالوجود ، الحرية التى أريقت فى سبيلها دماء منذ القدم هى التى يضحى أولئك البؤساء فى سبيلها بالفردوس الذى أعده لهم المجتمع المشفق عليهم البارىء ! ! أو ليس هؤلاء البؤساء بشرا كسائر البشر يعشقون الحرية ويضحون فى سبيلها بما ملكت أيديهم وما ملكت أيديهم إلا طعام الملجأ وكسوته وفراشه يضحون بها ليعودوا الى الشارع .

ما أشبه هؤلاء الناس بالطائر فى القفص يقدم له من الطعام ما يطير إليه من كل حدب فلا يظفر منه الا بالقليل أو دون القليل ومع ذلك يعاف الطعام فلا يكاد يفتح أمامه الباب للفرار حتى يفر فلا يعود الى القفص مهما اشتد به الجوع وكلت أجنحته من الطيران فى سبيل الطعام ، لا ولن يعود الى القفص ولو كان قفصا من ذهب

الملجأ ! ! ذلك القفص الذى توفر فيه الطعام والكساء والفرش والغطاء لا يعجب البائس المحروم الذى رثوله المجتمع فأنفق المال فى سبيل راحته وأنشأ الملجأ لتوفير تلك الراحة ، ذلك الملجأ الذى ظنه المجتمع حسنة من حسناته ومفخرة من مفاخره ينفر منه البائس الذى من أجله أنشىء ومن أجل راحته تأسس وينفر منه فيقابل إحسان المجتمع بالعقوق وصنيعه بالنكران .

ولكن البؤساء لو أقاموا فى الملاجئ كما هى ورضوا بالطعام والكساء بديلا من الحرية إذن لنزلوا بذلك عن طبيعة الإنسان ولكن فرارهم من الملجأ دليل على حبهم للحرية وإيثارهم لها وعلى ان انسانيتهم كامنة فيهم رغم الجوع والحاجة .

فاذا كان المجتمع قد أحسن الى هؤلاء البؤساء بايجاد الملجأ ينقذهم فيه من العرى والجوع ، فلم يفسد هذه الحسنة بالحد من حرية اللاجئين ؟ ولم لا يقدم لهم ما يقدم من صدقة وهم أحرار يخرجون ويعودون فيكون الملجأ كبرج الحمام بدل أن يكون كقفص الطير .

لم لا يكون الملجأ منزلا بكل معانى الكلمة فيه الطعام والفراش وفيه معهما حرية الخروج والدخول .

لست أدرى من الذى فرض على اللاجئ نظام السجن بل لست أدرى من الذى أصدر على اللاجئ الحكم بالسجن ، وأنا لا أعلم أن فى قدرة أحد أن يقضى على الناس بالسجن إلا القضاء وبتهمة ثابتة .

إنى لأعتقد أن فى الأمر خطأ غير مقصود حين حيل بين اللاجئ فى الملجأ وحقه فى الخروج والعودة فهذا حق لا يجرد منه اللاجئ لأنه نزل منحاً مضطراً بحكم الحاجة أو أنزل فيه حتى لا يضايق الناس بالالحاح فى السؤال أو حتى لا يؤذى العزة القومية فليس مما يشرف الأمم أن يتسول أبناؤها .

نعم أن هناك خطأ غير مقصود فى تقييد حرية اللاجئ بغير حكم ولغير جريمة وما كان البؤس جريمة وما كان المحسنون الذين أنشأوا الملجأ قضاة لهم حق تقييد الحرية .

إنى أعتقد أن اللاجئين لن يثوروا على ملاجئهم التى تطعمهم وتؤويهم ان هم وجدوا أنفسهم فى الملاجئ أحراراً يخرجون ويعودون كأنهم فى منازلهم الخاصة فان كان لهم فى الملاجئ عمل فلا بأس أن يمنع خروجهم حتى ينجزوه ولكن يجب أن يتمتعوا بحريتهم فى الخروج والدخول وحتى فى المبيت خارج الملجأ ان كان لهم من يقضون الليل عنده .

لست أدرى ما الذى يمنع الملاجئ من ترك اللاجئين يغدون ويروحون أحراراً ما دام القانون لم يفرض عليهم تقييد الحرية لخروجهم عليه .

عسى أن يفكر أصحاب الملاجئ فى هذه الخطوة فيخطونها حتى يأنس الناس الى ملاجئهم فلا نعود نسمع عن تمرد فى ملجأ وعن فرار من مؤسسة خيرية .

عريان سعد

من حكم الإمام على

— احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع .

— قلوب الرجال وحشية فمن تألفها أقبلت عليه .

— قدر الرجل على قدر همته ، وصدقه على قدر مروءته ، وشجاعته على قدر أنفته ، وعفته على قدر غيرته .